موضوعات شعره

قسم شاعرنا ديوانه إلى أبواب ستة، هي الغزل والأوصاف والملح والمدح والأدب ثم المراثي. وإذا كان غزله عادياً لا حرارة فيه، حيث لا توجع ولا كآبة، ولا لوعة فراق فمرد ذلك إلى أن الرجل كان رجل سيادة ورئاسة وأنى لمثله أن يفرغ لأحاسيس قلبه، وهو يعيش كل تلك الأحداث الصعبة والخطوب المهلكة وطبيعي أن يجيد (أسامة) في مدح الملوك وفي مطارحتهم والرد على رسائلهم الشعرية، وذلك بحكم قربه منهم والعيش معهم يسامرهم في مجالسهم أحياناً ويخوض غمرات القتال إلى جانبهم في أحيان أخرى. ويطلع على ما يدور في قصورهم من أحداث ومؤثرات.

ولعل أجمل وأصدق ما قاله من شعر، جاء في باب الرثاء، سواء كان هذا الشعر في رثاء ابنه (أبي بكر) الذي توفي صغيراً، أو في رثاء أهله الذين ماتوا جميعاً في حادث الزلزال الرهيب الذي أطاح بشيزر فاسمعه يتفجع:

لم يترك الدهر لي من بعد فقدهم ... قلباً أجشمه صبراً وسلوانا

بادوا جميعاً، وما شادوا فوا عجبا ... للخطب، أهلك عمارا وعمرانا

هذي قصورهم أمست قبورهم ... كذاك كانوا بها من قبل سكانا

بني أبي أن تبيدوا، إن عدا زمن ... عليكم دون هذا الخلق عدوانا

فلن يبيد جوى قلبي ولا كمدي ... عليكم أو يبيد الدهر ثهلانا

أفسدتم عمري الباقي علي فما ... أنفك فيه كئيب القلب ولهانا

ثم يستمطر لهم شآبيب الرحمة ويطلب لهم من الله المغفرة فيقول:

سقى ثرى أو دعوة رحمة ملأت ... مثوى قبورهم روحاً وريحانا

وألبس اللّه هاتيك العظام وإن ... بلين تحت الثرى عفواً وغفرانا

ومن روائع تصويره قوله في رثاء ابنه:

أزور قبرك مشتاقاً فيحجبني ... ماهيل فوقك من ترب وأحجار

فأنثني ودموعي من جوى كبدي ... تفيض فأعجب لماء فاض من نار